

ملف العدد

فيلسوف الانْتباه: "قراءاتٌ في تجربةِ الكاتب خيري منصور"

نيسان 2022 | العـــــدد 399

ثقافية شهرية -تصدر عن وزارة الثقافة
المملكة الأردنيـة الهاشمـية منذ 1966

399

المتنبي ورهانات القراءة الجديدة: (شعريّة الصّراع) لمفلح الحويطات نموذجًا

عامر سلمان أبومحارب*

في كتابه "شعريّة الصّراع: مقاربة نصّيّة في شعر المتنبي" استطاع مفلح الحويطات، وفي ظل الإشكالات الكبرى التي تعيشها النظريّة النقديّة العربيّة، أنْ يخلقَ هامشًا بحثيًا جديدًا في تجديد "ذكرى أبي الطيّب المتنبي" بلغة طه حسين حين كتب "تجديد ذكرى أبي العلاء"، بما يطرحه من طروحات نقديّة جادة في كتابِه، واستطاع الحويطات أن يُعيد الاشتباك مع شعر المتنبي من جديد، غير أنَّ على المرء أنْ يذعن لقول مؤدّاه أنَّ بعضًا أو قُل كثيرًا من أسرار شعر المتنبي لمّا تزل عصيّةً على الكشف، غامضةً أمام كل هذه القراءات المتعاقبة.

أطلق خالد الكركيّ في دراسته القيّمة عن المتنبي "الرونق العجيب: قراءة في شعر المتنبي"(2008) مقولةً مؤثرةً في الدّرس النّقديّ المعاصر مؤداها أنّ شعر المتنبي يستمد سرّه من "الرّونق العجيب" بلغة الجاحظ، وهي قولةٌ تتصادى مع القولة المركزيّة في الأرشيف النّقديّ الذي كتب حول المتنبي بوصفه شاعرًا "مَلَأَ الدُّنيا وشَغَلَ النّاس"، وهكذا يبدو شعر المتنبي منفحتًا وفقًا لهذا المفهوم على فكرة بلاغة المحتمل أو المتعدّد، أي أنّه يمثّل مراحًا لإعادة الاشتباك معه من جديد، في سبيل تلمُّس كنهه العجيب والمختلف والآسر!

وفي هذا السياق يُعيد مفلح الحويطات في دراسته الرّاهنة "شعريّة الصّراع: مقاربة نصّيّة في شعر المتنبي"(*) قراءَةَ المتنبي من منظور يزاوج بين الالتفات إلى النّصّ وسياقه في الآن عَيْنه دون أن يُعزَل أحدهما عن الآخر بوصفهما صنويْن لا ينفصلان.

وإذا كان الشّعر العربيّ في أزمنته المتعددة والمتقلّبة ينماز بكونه متوتّرًا وقلقًا، على الدوام، فإنّ انتخاب مفلح الحويطات لثيمة الصّراع Conflict لتكون محور مقاربته لشعر أبي الطّيّب المتنبي يمثل اختيارًا واعيًا بالموضوعة التي تلتئم عليها القصيدة الشّعريّة عند المتنبي؛ فالصّراع يمثل بؤرة مركزيّة في فكر الشاعر، وهو كذلك أحد الشّيفرات النّسقيّة التي يتمحور حولها شعره، فضلًا عن كونه يمثّل أبرز العلامات السّيميائيّة semiotic signs الدّالة والمُتكررة في إمبراطوريّة القصيدة/ الشعر التي أسّسها المتنبي بلغة "رولان بارت" في إمبراطوريّة العلامةThe Empire of signs، وهي؛ الشاعر، والسّلطة، والتابع، والأنا، والآخر.

ولعلّه من نافل القول الإشارة إلى أنّ شعر المتنبي يقع في منزلةٍ بين المنزلتَيْن، وهو ما يزيده ألقًا ويضفي إليه ما يحقق له "الرّونق العجيب" كما يشير الجاحظ في "البيان والتّبيين"، أي أنّه وفقًا لذلك ينفتح كما يشير إلى ذلك "جاك دريدا" في إلماعه إلى مفهوم الشبحيّة، بين الممكن واللاممكن، والمتوقع واللامتوقع، إنه هكذا وفي حالة من "التّضاد المدهش" يمثّل في اللحظة عَيْنها اللاشيء والشيء كذلك! ولذا فإنه لمّا يزل مزنّرًا بسحرٍ خاص، يجعله مشرّعًا أمام

* باحث أردني
amer998888@yahoo.com

النّظريّات النقديّة المختلفة في سبيل تلمُّس سرّه المكنون، أو اكتشاف كُنهه المخبوء.

ولأنّ في طيّات العناوين وبدايات الكتب فتنةً وعُجبًا كما يقول أبوعمرو الجاحظ، فإنّ القارئ لكتاب الحويطات يلحظ أنه أَوْلَى عناوين دراسته الرّئيسة والفرعية غيرَ قليلٍ من عنايته واهتمامه، ويلحظ أنّ العناوين التي اختارها الحويطات لكتابه ذاتُ أبعادٍ سيميائيّة دالّة ومتسقة مع طرحه المنهجيّ، وهي عنواناتٌ انعكست على صفْحتها مجالات الانشغال المنهجيّ الذي يحكم عمل الحويطات النّقديّ، وهذه العنوانات: (القيمة الشعرية وتعميق الاختلاف، والأنا وإرادة القوّة، والخطاب المقنّع، والخطاب السّافر، والفصل الثالث: صراع الأنا والزّمن، والحسّ المأساوي في مواجهة الزمن، جدل الحب والموت، والأنا وقَيْد المكان، وبلاغة التضاد)، وبالنّظر إلى إهداء الحويطات كتابه الراهن، نقرأُ على صفحة الإهداء قوله:

(إلى خالد الكركي المسكون بحبّ المتنبي و"رونقه العجيب")

وليس بدعًا من القول إنّ الإهداء عند السّيميائيين يُعَدُّ علامةً إشاريةً، وعتبةً خطابيةً منتجةً، تنفتحُ على عددٍ من الدّلالات والمعاني، إذ يبدو كتاب الرونق العجيب الذي كتبه خالد الكركي عن شعر المتنبي مولّدًا للإبداع، وشرطًا حتميًّا للعبور، من أجل فتح كوى كاشفةٍ، تعين الناقد على إعادة اكتشاف/ قراءة شعر أبي الطّيّب المتنبي من جديد. وبالنظر إلى اختيار الحويطات لخالد الكركي، ليقدّم له دراسته، فإنّنا ندركُ وعي الحويطات بثقافة الاختيار أو جماليات الانتخاب الثقافيّ، وأهمّيتها في منح دراسته قيمة إشهاريّة مائزة، إذ يمثّل المتنبي الموضوعةَ المركزيّةَ في نقْد خالد الكركيّ، ومشروعه، وفِكره، وأدبه كذلك.

ويبدو أنّ الحويطات نجح في اختياره الكركيَّ ليكون كاتب العتبة التأسيسيّة بما هي عليه بوصفه تقديمًا/ تقريضًا، إذ يفتتحُ الكركيُّ كتاب الحويطات بمقدمة مُهِمَّةٍ، يقول فيها: "يُشكّل هذا الكتاب حالة متميّزة بين الدراسات الجديدة عن شعر المتنبي"، ويقول: "وبين مؤيدي أبي الطّيّب والمعجبين بشعره وأولئك المبغضين له ولإبداعه، سار مفلح الحويطات حول حِمى أبي الطّيّب الشّاعر (الإشكاليّ) كما يقول، واختار (النّصّ الشعريّ)، ولم يقف عند معطيات السّياق الخارجيّ... من هنا أرى أنّ مقدمة الكتاب مُحكمة، والصّياغة دقيقة، والأسلوب بيِّن الجودة"(ص7)، وفي هذا الذي ذهب إليه الكركيُّ تكريسٌ لمقولة التّجديد التي بنى الحويطات على أسّ منها دراسته الراهنة.

وتمثل اختيارات الحويطات في هذا الكتاب، على تعددُها وغِناها، ملمحًا مائزًا، في خطابه النقدي الراهن، وذلك يتجلّى في التفاته لموضوعة شعريّة الصّراع ابتداءً، وشعر المتنبي ثانيةً، وما يلي ذلك، من اختيار الكركيّ لتقديم الكتاب، واستصفاء أبيات بعينها مادةً للقراءة والتّحليل، وانتهاء بتخيُّر ديوان المتنبي صنعةِ عبدالرحمن البرقوقيّ، إذ يمثل جلّ ذلك وعيًا يستطلب الإشارة والإشادة.

ويكشف المستوى الإجرائيُّ في هذا الكتاب عن تمثيلات قارئ/ ناقد مُختلِف، يمتلكُ وعيًا نقديًّا مائزًا يجعله قادرًا على تحليل النُّصوص، وفكِّ شيفراتها، وإضاءة معمّياتها، والقبض على إشاريّاتها النّصيّة/ المحتملة.

وفقًا لذلك يجيء هذا الكاتب في خمسة فصول، على النحو الآتي: الفصل الأول: (صراع الأنا والآخر)، والفصل الثاني: (صراع الشّعر والسّلطة)، والفصل الثالث: (صراع الأنا والزّمن)، والفصل الرابع: (صراع الأنا والمكان)، والفصل الخامس:

(الصّراع في البِنية).

في الفَصْل الأول: (صراع الأنا والآخر) يعاين الحويطات تمثيلات الأنا المتورّمة أو الفاعلة ومركزيتها في الصراع مع الآخر في شعر المتنبي، إذ تمثل "النّبوة الشّعريّة"، و"حيازة ملكة البيان"، و"تفرُّد الذات"، علامات دالّة، وأقنعة نسقيّة، ووسيلة ناجعة في الرّدّ بالكتابة، وفقًا للرؤية النسقيّة التي يتبنّاها المتنّبي في صراعه مع الآخر، ولا ريب أنها تمثل كذلك، فضلًا عمّا أشار إليه الحويطات، رموزًا للذات في أتون اللعبة الرّمزيّة التي يؤسس لها مؤلّف العمل الأدبيّ كما في الدراسات السيميائية المعاصرة. ولعلّ صراع المتنبي مع الآخر يتجلى في بيتين شعريين، يجعلهما الحويطات عتبة نصيّة/ نقديّة، يفتتح بهما هذا الفصل، إذ يقول المتنبي:

وَلمّا صَـــارَ وُدّ النّاسِ خِبًّا   جَزَيْتُ على ابْتِسامٍ بابْتِسَامِ
وَصِرْتُ أشُكُّ فيمَنْ أصْطَفيه   لعِلْمـي أنّـهُ بَعْضُ الأنَـامِ

إنَّ المتنبي هنا ووفقًا للإشاريّات السّابقة والقصائد التي انتخبها الحويطات في هذا الفصل يؤسس للصوت المختلف، ولذا فإنَّ قصيدته تبنني وفقًا لهذا المسار على فاعلية تقويضيّة مضادّة، تُمأسِس مبدأ مركزيّة الذّات Center-cism التي تمثل نموذجًا مختلفًا، وصوتًا مضادًا، في وجه السّلطة المركزيّة، وإن كانت تمارس عليها ضربًا من المخاتلة والتّعمية، التي تستند إلى بلاغة المجاز وجماليّات النّصّ/ الشّعر.

وفي الفَصْل الثاني (صراع الشّعر والسّلطة) يجلّي الحويطات تمثيلات "مبدأ الرّفض والاختلاف" في شعر المتنبي، وذلك عبر طقسيّة المديح ومخاتلات النّسق، عبر تأثيل خطاب حجاجيّ معارِض، "سافر" تارة، و"مقنَّع" تارة أخرى، إذ تضمر القصيدة عند المتنبي موقفًا مناهضًا للسلطة، وهو ما يجلّيه نسق الذّات الاستعلائيّة، التي تمتلك سلطة المعرفة وقوّتها The Power of Knowledge، كما يشير إلى ذلك "ميشيل فوكو"، قُبالة سلطة عمياء، لا يمكنها مجاراة الذّات، معرفة ورؤية، ولعلَّ بيت المتنبي الذّائع يمثّل بؤرة لهذه الرؤية، إذ يقول:

وَفُؤادي مِنَ المُلـــــــوكِ وَإن   كانَ لِساني يُرى مِنَ الشُعَـــــراءِ

وفي قوله كذلك:

لا تَجْـــسُرُ الفُصَحاءُ تُنشِدُ ههُنا   بَيْتًا ولكِنّـــي الهِزَبْرُ البَاسِـــلُ
ما نالَ أهْلُ الجاهِلِيّـــةِ كُلُّهُمْ   شِعْري ولا سمعتْ بسحري بابِلُ

وهنا يؤكد الحويطات أنَّ المتنبي بوصفه شاعرًا متحوّلًا، اتّخذ من جماليات المجاز/ الشعر، أداة تعينه في نقد/ انتقاد، وتأكيد صراعه واختلافه الرّؤيويّ كذلك معها، ذلك أنّه يملك رؤية كونية، تحتكم إلى قانون النور والإبصار/ المعرفة والبيان/ الشعر، في حين أنَّ السُّلطة لا تملك المعرفة/ القدرة على أن تَميّز الشعر/ الكلام، بسبب ضلالها، وزيغها، وابتعادها عن جادة الصّواب.

وفي هذا السياق تبرز إشكالية السيف والقلم، التي تمثل انعكاسًا لإشكاليّة المثقّف والسّلطة في العصر العبّاسي، وهنا ينتصر المتنبي للشّعر/ السّحر الحلال، على الكتابة بوصفها وظيفة مركزيّة في البلاط العبّاسي، في ضوء تحوّلات الوظيفة بين الشاعر والكاتب، بيد أنّ الكتابة من منظور المتنبي لا توازي الشّعر؛ قيمة، ووظيفة، وشأوًا، ورؤية للكون والوجود، فضلًا عن نزعتها التّحرريّة. التي تفتقد عند الكاتب/ الكتابة، في حين أنَّ الشاعر هو وحده مَن يملكها، وهو ما ألمح

إليـه أدونيـس في قولـه:

"أحمد لم يكن مادحًا

كان يهجو عمى الآخرين

ويقرأ أحواله وأعماله في شمائل ممدوحه"

(أدونيس، الكتاب/ من أوراق سيف الدولة، ج2، ص533)

وهُنـا وإضافـةً لمـا أشـار إليـه الحويطـات تمكـن الإشـارة إلى أنّ المتنبـي إنمـا يتخـذ مـن ثقافـة التفـاوض وسـيلة في تعاملـه مـع الآخـر السـلطوي، ولـذا فإنّـه يحتكـم لمبـدأ التفـاوض وفـق "كلـود ريمـون"، في إنشـاء عمليّـة/ علاقـة تفاوضيّـة، تقتـضي تبـادلَ الخدمـات مـع الخصـم السّـابق أو الحليـف المسـتقبليّ.

وفي الفَصْـل الثالـث (صراع الأنـا والزّمـن) يعايـن الحويطـات صراع الشـاعر/ المتنبـي مـع الزّمـن، وهنـا فـلا مندوحـة مـن القـول إنّ الزمـن مثّـل محـورًا مركزيًّـا مـن محـاور القصيـدة العربيّـة، عـبر صيروارتهـا التاريخيّـة، بيـد أنّـه عنـد المتنبـي يمثّـل إشـكاليّة كـبرى، وحالـة خاصّـة، ذلـك أنّ حركيّـة الزّمـن وتحولاتـه وتقلّباتـه الدائبـة، تحيـط الشـاعر بمـا يمكـن أن يطلـق عليـه "سَـورة الزمـن"، وتشـعره بوطـأة الزمـن المأسـاويّ، وتبـدّد اللحظـة المرغوبـة، فتقـادُم الزّمـن يمثّـل في فكـر المتنبـي تهديـدًا وجوديًّـا/ المـوت، ويطـرح عـلى الـذات سـؤالات الوجـود، والحيـاة، والمـوت، فالزمـن في اسـتمراريته يجعـل مـن الـذات الشّـاعرة ذاتًـا قلقـة ومتوتّـرة عـلى الـدوام، ومدفوعـةً إلى محاولـة إنجـاز مشروعهـا/ رؤيتهـا، يقـول المتنبـي:

أمِثْلـي تأخُـذُ النَكَباتُ مِنْـهُ وَيَجزَعُ مِنْ مُلاقـاةِ الحِمامِ

ولـو بَرَزَ الزّمانُ إليّ شَخصًـا لخَضّبَ شعرَ مَفرِقِهِ حُسامي

وفي إطـار صراع المتنبـي مـع الزّمـن يشـير الحويطـات إلى مركزيـة ثيمـة الحـب في قصيـدة المتنبـي، وهـو في ذلـك إنمـا ينـزع عـن قـوسٍ يُخالِـف خلالهـا جمهـرة نَقَـدة شـعر المتنبـي، عـلى مـرّ العصـور، الذيـن يـرون في حضورهـا في شـعر المتنبـي تقليـدًا فنيًّـا متوارثًـا وحسـب؛ غـير أنّ الحويطـات يـرى أنّ تَكـرار ثيمـة الحـب بهـذه الصـورة اللافتـة يمثّـل في فكـر المتنبـي هروبًـا مـن زمنيـة التوتـر والقَهْـر والإحبـاط واللاجـدوى، في حياتـه القلقـة، ولـذا فـإنّ اسـتدعاء تجربـة الحـب تكريـس لقيمـة الحيـاة في مواجهـة المـوت، وإشـارة دالّـة إلى الحنـين الدائـب إلى زمـن المـرأة والحـب والخِصـب والحيـاة.

لقـد ظلّـت إحداثيـات الزمـن السـالبة تمثّـل ضاغطًـا ثقيـلًا عـلى نفـس الشـاعر، في ظـلال تعـذّر/ تأخّـر إتمـام مشروعـه، فقـد عـانى المتنبـي مـن ثقـل هـذا الزمـن، فحـاولَ مـن خـلال شـعره أن ينتفـض في وجهـه مـن خـلال حركيّـة ناجـزة، تخـرِق خلالهـا الـذاتُ سَـورة هـذا الزمـن الثقيـل، وذلـك بصـورة لافتـة، تضفـي إلى الـذات بعـدًا أسـطوريًا وتسـارعيًّا لا يقـرّ قـراره دون بلـوغ الغايـة القصـوى.

وفي الفصـل الرابـع (صراع الأنـا والمـكان) يغـدو المـكان تجلّيًـا آخـر مـن تجليـات الـصراع في شـعر المتنبـي، إذ يمتلـك المـكان في شـعره قيمـة فاعلـةً ومؤثّـرةً في بنيـة النّـصّ الشـعريّ، وذلـك بوصفـه قيـدًا وتجـاوزًا وغربـةً في الآن عَيْنـه، كـما يـرى الحويطـات، ويصبـح المـكان قيـدًا حـين يمنـع الشـاعر/ الـذات الفاعلـة مـن بلـوغ مآربهـا، في حـين أنـه يمـسي غربـةً أو اغترابًـا، حـين يُحِـلّ الشـاعر أرضًـا ليـس يرغبهـا، ولأنّ المتنبـي مسـكون ببلـوغ غايتـه، فقـد مثـل المـكان لديـه فكـرة مركزيّـة، لا يمكـن

لـه الانعتـاق مـن إسـارها، يقـول المتنبـي:

عَلى قَلَـقٍ كَأَنَّ الريحَ تَحتي   أُوَجِّهُهـا جَنوبًا أَو شَــمالا

ويقول في موضع آخر:

لِتَعْلَــمَ مصرُ وَمَنْ بالعراق   ومَنْ بالعواصــم أنّي الفَتـى

ويشـير الحويطـات إلى أنّ ثمـة تحـولًا مركزيًـا طـرأ عـلى علاقـة المتنبـي بالمـكان، إذ إنّ المـكان والترحـال الدائـب وتخطـيَ المـكان الرّاهـن، تغـدو مـؤشرات دالّـة عـلى رغبـة الشـاعر بـأن يجعـل مـن تجـاوز المـكان آليـة/ اسـتراتيجية دفاعيّـة، تعكـسُ حركـة الـذات الفاعلـة والدائبـة في صراعهـا مـع الحيـاة، وهنـا تصبـح الإبـل والخيـل مثـلًا- أقنعـةً نسـقيّة للـذّات الشـاعرة، التـي تريـد تجـاوز الراهـن وبلـوغ المأمـول، عـلى اعتبـار أنهـا، أي هـذه الأقنعـة، تمثـل رمـوزًا تحيـل إلى الـذات، وتعـدّ معـادلًا موضوعيًّـا لهـا.

وفي الفصـل الخامـس، يجـلي الحويطـات تمثيـلات بنيـة الـصراع في بنيـة النـص الشـعري عنـد المتنبـي، وهنـا تجسـد لاميّـة المتنبـي "لَيـالِيَّ بَعـدَ الظاعِنـينَ شُـكولُ" نصًّـا قلقًـا، يقـام أوده كـما يـرى الحويطـات عـلى متضـادات/ تجـلي صـورة الـصراع الـذي يعتمـل في نفـس الأنـا الشـاعرة، بـين الضـوء/ الفجـر والعتمـة/ الليـل، والنحـن (المسـلمون)/ الـروم، والأنـا الشّـاعرة/ المتنبـي والحسّـاد، في حـين أنّ القصيـدة التـي مطلعهـا "فِـراقٌ وَمَـن فارَقـتُ غَـيرُ مُذَمَّـمِ" تعكـس لحظتـين فارقتـيْن، تـبرزان قلـق الـذات وإشـكالية المصـير في فكـر المتنبـي، وهـما عـلى أيّ حـال اللحظـة السّـالبة/ التـي صنعهـا سـيف الدولـة، الـذي يمثّـل السّـلطة العميـاء، واللحظـة التنويريـة/ التـي يتشـوّق إليهـا المتنبـي في بـلاط كافـور الإخشـيدي، إذ تعكـس اللحظـة التّنويريّـة في شـعر المتنبـي رغبتـه الملحّـة في تخليـق صـورة "النمـوذج البديـل"، وفي هـذا السـياق ذاتـه ينتخـب الحويطـات ميميّـة المتنبـي الذائعـة، التـي تمثـل تحـوّلات الشـاعر، وانقلابـه عـلى سـيف الدولـة، وصراعـه معـه بعـد تحوّلاتـه الطّارئـة/ السّـالبة تجـاه الشـاعر المتنبـي.

وفي هـذا السـياق يشـير الحويطـات إلى مـا أسـماه "بلاغـة التضـاد" في عـددٍ مـن القصائـد، لعـل أبرزهـا القصيـدة التـي مطلعهـا "الحُـزنُ يُقلِـقُ وَالتَجَمُّـلُ يَـردَعُ"، وهـي قصيـدة تتأسـس عـلى طائفـة مـن الثّنائيـات الضّديّـة، التـي تتجـلّى في مسـتويات القصيـدة المختلفـة صـورةً شـعريّةً ولفظًـا وبنـاءً فنيًـا، لتعكـس حالـةَ الشّـاعر الـذي غـدا نهبًـا بـين نموذجـين إنسـانيين، يسـعى الشـاعر إلى تخليـد الأوّل/ فاتـك، وطمـس/ تشـويه صـورة الثـاني/ كافـور.

وأخـيراً، فيشـبه أنْ يكـون لازبًـا أن يعلـن صُراحًـا أنَّ هـذا الكتـاب، اسـتطاع، والنظريـة النقديّـة العربيـة تعيـش إشـكالات كـبرى، أنْ يخلـقَ هامشًـا بحثيًـا جديـدًا في تجديـد "ذكـرى أبي الطيّـب" بلغـة طـه حسـين حـين كتـب "تجديـد ذكـرى أبي العـلاء"، بمـا يطرحـه مـن طروحـات نقديـة جـادة، غـير أنَّ عـلى المـرء أن يذعـن لقـول مـؤدّاه أنَّ بعضًـا أو قُـل كثـيراً مـن أسرار شـعر المتنبـي لمّـا تـزل عصيّـةً عـلى الكشـف، غامضـةً أمـام كل هـذه القـراءات المتعاقبـة.

- - - - - - - - - - - - - -

(*) مفلـح الحويطـات، شـعريّة الـصّراع: مقاربـة نصّيّـة في شـعر المتنبـي، الإمـارات، هيئـة أبوظبـي للسـياحة والثقافـة، ط1، 2017.